الحلقة الخامسة عشرة

فرانسواز ساجان

openkandl.com

من الصعب أن تكون «قمة» أدبية بين يوم وليلة.. في بلد كفرنسا، المزدحم بالقمم الساطعة الباهرة في الشعر.. وفي الرواية.. وفي المسرح.. بل وفي الفلسفة أيضاً، لكن «فرانسواز ساجان».. الأديبة الشابة: ابنة الثامنة عشر عاماً.. استطاعت أن تقتحم القلاع وأن تحقق الصعب فتتسلق أسوار «نوتردام»، وجدار «اللوفر»، وكتل الحديد التي قام عليها «برج إيفيل» الشهير في وسط باريس.. لتغدو في مطلع الستينات الميلادية الماضية نجمة في سماء الرواية الفرنسية برائعتها الأولى: «صباح الخير.. أيتها الأحزان».. فتقف بها.. جنباً إلى جنب مع روايتي «الغريب» لكامو و«الغثيان» لسارتر اللتان كانتا في تلك المرحلة من ستينات القرن الماضي أجمل وأمتع وأفخر ما على مائدة الرواية في فرنسا، فإذا كان المثقفون الفرنسيون من قراء «الليموند» و«النوفيل أبسيرفيتوار».. لم يفاجأوا بكاتبتها التي ولدت في عام ١٩٣٥م، ونشرت روايتها لأول مرة في عام ١٩٥٣م، فإن سواد مثقفي العالم العربي.. قد صعقتهم المفاجأتين معاً: «الكاتبة» بشبابها الغض.. و«الرواية» بجمالها الأخاذ، عندما

تُرجمت إلى العربية، ووضعت في المكتبات وأكشاك بيع الصحف في عواصم وكبريات مدن العالم العربي المتابعة لحركتي الإصدارات والنشر في أوروبا والأمريكتين والاتحاد السوفييتي آنذاك..

* * *

ففي صباح يوم من أيام سبتمبر من عام ١٩٦٠م.. كانت الرواية قد وصلت إلى أكشاك بيع الصحف في شوارع وميادين «الإسكندرية»، وقد سبق وصولها حشد من الأخبار والتعليقات والصور في جميع الصحف والمجلات.. عن الرواية وعن كاتبتها الشابة الجميلة التي تأكل قليلاً، وتسهر كثيراً، وتقود عربتها حافية القدمين في شوارع باريس..!! ليتلقفها أبناء الإسكندرية والمقيمون فيها من المبتعثين إلى جامعتها، وكلياتها العسكرية المختلفة من شتى أنحاء الوطن العربي.. من أمثالنا.

ورغم أن تلك الترجمة العربية للرواية.. لم تصدر في بلد يعاني من حالة جوع روائية أو قحط روائي، بل في بلد يعيش ترفاً ثقافياً: روائياً شعرياً فنياً فريداً.. لم تعرفه حياة المصريين من قبل ولم يتكرر فيما بعد وسط أساطين من كتاب الرواية والقصة والمسرح من أمثال: نجيب محفوظ ومحمد عبدالحليم عبدالله وإحسان عبدالقدوس في الرواية، ويوسف إدريس ويوسف غراب وإبراهيم الورداني في القصة، وتوفيق الحكيم ونعمان عاشور وسعد الدين وهبه في المسرح.. الذين كانت تمتلئ مكتبات مصر بروائع إنتاجهم الروائي والقصصي والمسرحي، إلا أن الإقبال على ترجمة رواية فرانسواز ساجان «صباح الخير أيتها الأحزان»..

كان كاسحاً.. وأسطورياً، مما اضطر الدار التي تولت طباعة ترجمتها.. إلى إعادة طباعتها في طبعة شعبية رخيصة.. حتى تتيحها لغير القادرين من آلاف القراء الذين كانوا يطلبونها، وقد كنت منهم.. بعد أن فقدت نسختي الأولى من الرواية بسبب مبدأ الإعارة الدائم والظالم..!

لم يكن عنوان الرواية الأخاذ «صباح الخير أيتها الأحزان»، ولا حداثة سن الكاتبة التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين ربيعاً.. هما عنصرا الجذب الوحيدين فيها، ولكن موضوعها المعروف والمألوف.. الذي لم يلتقطه أحد من قبل بتلك الصورة الدافئة الحادة الحزينة بمثل ما فعلت «فرانسواز ساجان».. هو سر أسرار عناصر الجذب في تلك الرواية، الذي تكامل مع العنصرين السابقين.. ليجعل من الرواية: حدث أحداث فرنسا الأدبية في عام صدورها.. ومن صاحبتها: عَلماً جديداً يضاف إلى أعلام فرنسا في سماء الإبداع.

فقد كتبت «ساجان» قصة حب من نوع آخر. قصة حب فتاة لـ«أبيها» الأربعيني الذي انفصل عن أمها.. فتولى هو تربيتها.. والعناية بها.. وكان لها الأب والأم والمعلم معاً، فهو الذي يعد لها الطعام.. وهو الذي يعينها على ارتداء ملابسها.. ثم يصحبها إلى المدرسة.. ليكون في انتظارها عند خروجها منها، فيعودان معاً.. ليتناولا عشاءهما معاً.. وليذاكر لها دروسها قبل النوم، ثم يصحبها إلى سريرها فيسدل ستائر غرفة نومها.. ثم يحكم عليها غطاءها ويتمنى لها «ليلة سعيدة».. وهكذا دواليك..

لقد كان والدها يريد بتكريس حياته لها على هذا النحو.. أن يعوضها عن فقدها لأمها وحنانها، ومرت الأيام.. وكبرت الفتاة، ليصبح والدها.. هو صديقها الأول.. وربما الأوحد.. فهما يذهبان إلى دور السينما والمسارح معاً.. ويتناولان عشاءهما في مطاعم باريس معاً.. ويتبادلان الضحكات والتعليقات والقفشات معاً. لقد أصبحت في مطالع صباها.. موضع فخره، وأصبح هو كل حياتها..

كان طبيعياً أن تأتي لحظة الفراق بين زمن وزمن.. فقد شعر الأب وقبل أن يبلغ الخمسين بحاجته إلى زوجة بعد أن أدى واجبه الأبوي كاملاً نحو «ابنته» التي كان لا يحب أحداً بمثل حبه لها، ولكن ابنته قاومت.. وأبت أن تشاركها امرأة أخرى فيه وكأنها نسيت أنها ابنته، حتى بدا من سياق الرواية وكأن حبها له وتعلقها به.. قد أخذها إلى منطقة شائكة متداخلة غير منطقة الأبوة والبنوة، وهو ما يتضح من استقبال الفتاة لأبيها.. بعد أن أمضى ليلته الأولى مع زوجته الجديدة التي حسم أمر زواجه بها.. وكيف كانت تشم فيه رائحة عطره المختلط برائحة تبغه وترى رباط عنقه الجميل المتدلي على صدره.. لتصيح مستسلمة وهي تحاول أن تخرج من غابة الحزن والدموع التي غشيتها ذلك الصباح: صباح الخير أيتها الأحزان.. مرحباً أيتها الكآبة والمرارات..

لقد قيل إن سبب نجاح الرواية.. هي أنها كانت قصة الأيام الأولى من حياة كاتبتها «فرانسواز ساجان»، وأنه لولا ذلك.. لما نجحت الرواية هذا النجاح الساحق الذي جعلها تتحول بعد شهور

إلى فيلم سينمائي من أنجح الأفلام السينمائية الفرنسية، ولكن الذي كان يدحض هذا الادعاء.. هو أن اسم الكاتبة لم يكن في الأساس فرانسواز ساجان.. بل كان «فرانسواز كواريز» على اسم أبيها الحقيقي رجل الصناعة الفرنسي المعروف، ولكن حاسة الفنان في شخصها.. جعلها تستبدل «كواريز» بـ «ساجان» وهو اسم لإحدى بطلات الروائي الفرنسي «مارسيل بروست».. الحائز على أعلى الجوائز الروائية الفرنسية، وهي جائزة «جونكور»، والمعجبة فرانسواز ساجان بأعماله وحياته.. التي انتهت قبل أن تولد فرنسواز ساجان نفسها بثلاثة عشر عاماً.

على أن فرانسواز ساجان أكدت عبقريتها الروائية.. من خلال روايتها الثانية «ابتسامة ما»، فرواياتها الأخر.. التي تتابعت طوال عقد الستينات وحتى بداية السبعينات كروايات: «هل تحبين براهمز» و«قصر في السويد» و«القهقهرى» و«السحب الرائعة».. والتي تحولت جميعها إلى أفلام سينمائية من أنجح الأفلام.

* * *

لقد كانت «فرانسواز ساجان» بحق.. لؤلؤة الرواية في فرنسا لما يزيد عن ربع قرن بكتاباتها «السهلة الدافقة والتي لا تقاوم».. كما قالت صحيفة «السن داي تايمز» اللندنية وهي تستقبل روايتها السادسة: «شمس دافئة فوق المياه الباردة» في عام ١٩٦٩م، أو كما قالت صحيفة «التايمز» البريطانية المحافظة.. وهي تستقبل ذات العمل «إن رشاقة أعمال هذه الروائية ماتزال فواحة.. وأنها أزلية»..!!

وإذا كان أحد النقاد المصريين قد قال عند ظهور رواية «لا أنام» للكاتب والروائي المصري الفذ الأستاذ إحسان عبدالقدوس.. بأنها مأخوذة أو مقتبسة عن رواية فرانسواز ساجان «صباح الخير أيتها الأحزان»، فإن تاريخ الأستاذ إحسان الروائي العريض.. والذي كان يسطع بعشرات القصص والروايات التي تتقدمها دون شك رائعته «شيء في صدري».. قد دفع عنه ذلك الاتهام، كما أن التزامن المتقارب في صدور الروايتين.. قد أكد ذلك الاستبعاد، ليبقى نصف قولة ذلك الناقد الذي لم أعد أذكر اسمه... في إطارها الموضوعي.. بأنه (شهادة) اعتراف بمدى ما أحدثته رواية فرانسواز ساجان من تأثير بارز ليس بين جماهير القراء وحدهم.. بل وبين النقاد والأدباء أنفسهم ليس أكثر.

* * *

على أن فرانسواز ساجان.. ومع اقترابها من سن الخمسين كانت وكأنها قد تعبت من الركض بسيارتها وأقدامها الحافية وقلمها الدافئ الذي لا يقاوم.. فكان أن خفت حجم إبداعها.. حتى أوقفت عنها دار النشر - بخساسة لا مثيل لها - مرتبها الذي كانت تتقاضاه، والذي لم يكن ليزيد عن ستة آلاف فرنك فرنسي.. لكنها سرعان ما استردت ركضها لتعود مع بدايات التسعينات بروايتها الجديدة «حزن عابر» التي قرأت عنها ولم أقرأها.. والتي تروي معاناة رجل متقدم في السن أصيب بالسرطان، ونظراً لقربها آنذاك من الرئيس فرنسوا «ميتران» المعجب بقلمها ورواياتها، والذي بدأت تظهر عليه بوادر إصابته بالسرطان في دورته الرئاسية

الثانية.. فقد تردد أن قصة «الحزن العابر» هذه، إنما هي قصة الرئيس نفسه.. ومعاناته مع السرطان الذي ظل يقاومه ويتكتم قصته.. حتى غادر الحياة مأسوف عليه..

* * *

لقد رُشحت فرانسواز ساجان بعد هذه الرواية التي تتحدث فيها عن الـ «حزن العابر».. لأعلى جائزة روائية في فرنسا، وهي جائزة «جونكور».. التي تقدمها أكاديمية جونكور لأعلام الرواية وأساطينها في فرنسا.

ولست أدري.. إن كانت قد حصلت عليها أو لم تحصل، ولكن الذي أدريه أنها ماتت مأسوف عليها قبيل سبعة أعوام في الرابع والعشرين من سبتمبر من عام ٢٠٠٤م، وأنني بكيتها.. مع مئات الآلاف من قرائها في شتى بقاع الأرض. فقد كانت بحق الحصان الأسود في مضمار الرواية الفرنسية.. الذي أتى مؤخراً، وتجاوز الجميع.. وسط دهشة النظارة من الأدباء والنقاد.

نعم.. كانت فرانسواز ساجان بأعمالها الأدبية الخلابة التي أدارت الرؤوس (نجمة) الرواية الفرنسية في القرن العشرين.. وبكل المقاييس. إنها شيء أكثر بريقاً ولمعاناً من «چاكلين كينيدي» في البيت الأبيض.. و«جريس كيلي» في قصر إمارة موناكو، فقد كانت الجوهرة السوداء النادرة في جيد الرواية الفرنسية.